

فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا

د. محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون يقول الله جلَّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ وقال جلَّ شأنه: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ روى الترمذي والحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنه قال كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال:

"يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"

وروى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً قدسياً قال في مطلعته عن ربه سبحانه وتعالى:

"يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم.... وفي نهاية الحديث قال: "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"

أيها المسلمون: لعل البعض يرى أن الشدة قد أحكمت حلقاتها وأن الأزمة قد بلغت درجة شديدة في تطويقها لبلادنا وأمتنا، وأن الأمر قد بدأ يلقي بظلال اليأس على بعض القلوب، مع أننا في الوقت ذاته نرى نوافذ الفرج تبعث بنسماؤها إلى قلوب تثق بالله وتطمئن لوعده. هناك أمرٌ هو من مسلمات عقيدتنا ومن مقتضيات إيماننا يجب أن نستذكره مع شدة وطأة المحنة التي تعيشها أمتنا، وبصورة خاصة ما تعاني منه بلادنا إذ تكالبت قوة الشر وتواطأت وجاءت بجموعها تارة باسم الإسلام وأخرى باسم الكفر، وكلها تعود إلى أصل واحد: صناعة إسرائيلية أمريكية تتربص بهذه البلاد شرا ولكنها لا تفتأ تحاول أن تجعل من الإسلام رداءا لتشويه الإسلام بذلك، وتجعل من شكلها القبيح نموذجاً مزيفاً لإسلام صنعته أمريكا والدوائر التي تنتسب إليها وتعمل في مصالحها، ولنتأمل أدنى تأمل لنذكر بكل بساطة إذا أمعنا النظر أن كل ما يجري في ما يبدو للناظر هو أمر بيت بليل من قبل الدوائر الغربية، فهي حلقات بدأت بما كنا نستذكر وكنا نحذر من نتائجه وتداعياته، ونصل إلى النتائج التي نراها بأم أعيننا اليوم، فتلك الحلقات في حقيقتها إنما كانت تسير لتصل إلى هذه النتيجة، ولكني أعتقد أن كثيراً من الاحباطات قد أصابت من رسم تلك الخطط لأنه اصطدم مع واقع لم ترسمه أيدينا وإنما رسمته العناية الإلهية ببلادنا، لا أريد أن أسترسل في الشرح؛ ولكن ينبغي أن نعود إلى ما يجري على الساحات بنتائج تزيد في يقيننا أو تقذفنا إلى الطرف الآخر إلى طرف اليأس إلى طرف الهزيمة إلى طرف الفشل الذي يُراد لنا أن نصل إليه، المؤمنون بالله والذي فوضوا الأمر إليه لا بكلمة ميتة على شفاههم وإنما بالتجاء صادق إليه وبتوبة صادقة فيها عزيمة وإصرار على أن نعود إلى نهج طاعة الله بعد أن شردوا عن طريقه رداً من الوقت، هؤلاء لن يجد اليأس إلى قلوبهم سييلاً، هؤلاء ستبقى عزيمتهم قوية وتبقى ثقتهم بالله عزَّ وجلَّ ماضية، وسيثبتون على النهج مهما كلفهم ذلك من تضحيات وسيصبرون على لأواء هذه الطريق مهما بلغت الآلام.

إننا نرى بأم أعيننا أن ما يجري على الساحة في بلادنا لو أنه تعرضت له دول عظمى لسقطت في أشهر قليلة، لكن العناية الإلهية جعلت من هذه البلاد صخرة تواجه تلك التحديات كما يواجه جبل قاسيون عواصف الرياح لترتد عنه ويبقى قاسيون صامداً ساخراً من كل تلك التحديات التي يتعرض لها، إذاً فالمسألة مسألة عقيدة. ولنعد إلى ما يجري على الساحة بما يصحح تصوراتنا وبما ينسجم مع إيماننا ومع ثقتنا بالله جلَّ شأنه أنه هو الفاعل وليس أمريكا، والمدبر هو الله وليست قوى الأرض أياً كانت فلتكن،

ومن تمسك بجبل الله أيده الله بنصره مهما كانت المصاعب ومهما كانت المخاطر، وهذا أمر رأينا مظاهر له بقي أن نثبت وبقي أن نصبر وأن نعلم أن طريق النصر يبدأ من العودة إلى الله. المصرون على استثمار هذه الأزمة لتوظيفها ضد الإسلام سواء كانوا من أبناء الداخل أو من أبناء الخارج هم كلٌّ يظهر في شكليين، بل هم الأزمة في حقيقتها. على أننا نقول: إن الإسلام الذي أنزله الله ﷻ هو الحصن الذي يحمي هذه الأمة، وإن مخالفة أمر الله عزَّ وجلَّ هو السبب في مصيبة هذه الأمة، أما عن مصاعب الطريق وآلامه وما يمكن أن نلقاه من شدائد فيه، فقد أشار إليها ربنا تبارك وتعالى وبين أن الأسى والألم هو من طبيعة هذه الطريق ألم يقل الله جلَّ شأنه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾ واليوم تجار الأكف الواثقة بالله المترتبة لتأييد الله ونصره كلها، إذا كانت لا تزال على الطريق والنهج، كلها تقول: متى نصر الله واثقة منه لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وقال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا﴾ ليس ظن اعتقاد، ولكنه ظن آلام شديدة في وطأتها على القلوب جعلت النفوس تتهز دون أن تهتز عقيدتها وثقتها بالله ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا﴾ - خيل إليه وليس الظن اللغوي المعروف - أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لم يسقط في هذه الأزمة ولن تعرك في رحاها إلا أولئك الذين شككوا بعقيدة هذه الأمة وبهوية هذه الأمة، وأرادوا أن يستثمروا العبادة التي لبسها أعداء الإسلام ليكونوا هم الصدى لذلك الصوت فيتجهجوا على الإسلام وينالوا منه، ولو أننا تصفحنا السنوات الثلاثة التي مضت لرأينا أن الذين ألبسوا الفتنة رداء الإسلام هي قلة قليلة من المارقين الذين باعوا أنفسهم وضمائرهم، أما الذين انقلبوا إلى الصف الآخر من غيرهم فهم الكثرة الكاثرة من المشككين والمنحرفين وليسوا المتدينين.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ليس لقوة غاشمة في الأرض سلطان في أن يخلق النصر أو أن يخلق الهزيمة، وإنما الأمر كله بيد خالق السموات والأرض، وليس لنا من دون الله من ناصر أو مؤيد، لنا أن نبي تحالفات سياسية وهذا أمر جرى عليه النبي ﷺ ولكننا في الوقت ذاته نثق بقوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فالنصر يخلقه الله عزَّ وجلَّ ولا تخلقه قوة مهما بلغت في هذه الدنيا، والهزيمة يتوليها الله عزَّ وجلَّ بها من شاء من عباده

وليس لقوة في الأرض أن تخلق الهزيمة، نحن واثقون من أن هذه البلاد ستنتصر بكفالة الله عز وجل لنبيه، وبإيمان أهلها وبالهوية الإسلامية التي تتمسك بها ستبقى منتصرة على كل القوى أياً كانت هويتها، وأياً كان انتماءها. وإن كنا نعلم يقيناً أن انتماءها واحد هو قوى البغي والاستكبار في الأرض، إلا أن ثمة أذياً سارت خلفها بغباء أو بضعف ضمير بضعف نفوس انخرطوا في سلك التآمر الكافر الذي تقوده أمريكا وقوى الصهيونية العالمية والغربية.

نعود إلى العقيدة التي ينبغي أن نستمسك بها خاطب النبي ﷺ عبد الله بن عباس وهو غلام ليشير إلى أن هذا من مبادئ عقيدتنا ومن أصول ديننا ومن مسلمات إيماننا: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله - باتباع أوامره واجتناب نواهيه - احفظ الله يحفظك - من كل مصيبة من كل أسى من كل نازلة يمكن أن تنزل بالأمّة، من كل مكر من كل تآمر من كل عدوان - احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك - نعم دائماً تتقدم العناية الإلهية مسارك إذا كنت أنت تتجه إلى الله ﷻ - تجده تجاهك، إذا استعنت فاستعن بالله، وإذا سألت فاسأل الله - كن واثقاً بالله كن مطمئناً بوعده إذاً هما أمران: الالتزام بنهج الله، والالتجاء إلى الله؛ هما سبيل استرداد زمام الأمر وسدة النصر، الأمر الأول: أن أعود إلى هدي الله ومنهجه بالالتزام أوامره واجتناب نواهيه، الأمر الثاني: هو هذا اليقين والثقة بالله ﷻ من أنه سبحانه لن يخيبنا - إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم - هنا يسخر الإنسان المؤمن من قوى الأرض كلها إذا اجتمعت لكي تحاربه وكان الله معه، ولكن كن مع الله يكن معك - واعلم أن الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك " لا ينبغي أن ننسى حقيقة لو أننا تأملنا الذي نحن فيه لوجدناه واضحة للعيان وهو أن ما تعرضت له بلادنا من مؤامرة عنيفة شرسة، لو تعرضت لها أي دولة من الدول الكبرى على النحو الذي تعرضت له بلادنا لسقطت في أشهر قليلة ولما ثبتت كما نرى نحن في بلادنا، وأنا أتحدى في هذا الأمر، أزمة بسيطة عصفت بانقطاع تيار كهربائي أو بخروج إنسان خارج على القانون أقلق نيويورك ست ساعات كاملة أو أياماً، شخص وليس مئات الألوف من العصابات الوافدة إلى البلاد مسلحين مدججين بأحدث أنواع الأسلحة، ولكنها عناية الله بهذه البلاد، ونصر الله قادم فمن شاء فلينتظر ملتجئاً إلى الله معتصماً ببابه واثقاً بتأييده، ومن شاء فلينهزم ولتقتله آلامه ويأسه،

على أن أمراً لا بد أن نستذكره هنا - واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف " الأمر الذي أريد أن ألفت الانتباه إليه ولفت النبي ﷺ من خلال حديث قدسي يرويه عن ربه قال: " إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا " الظلم سبب المصائب، والبغي فيما بيننا على بعضنا ظلم الأخ لأخته في حرمانها من ميراثها سبب لمصيبة تحقيق بتلك الأسرة، وظلم الجار لجاره سبب لمصيبة تحل بذلك الإنسان، وظلم الذين تسلحوا للاعتداء على إخوان لهم سبب لمصيبة تحقيق بهم. أما هذه الأمة فإنها بمقدار عودتها إلى ربها لن تستطيع قوة في الأرض أن تتغلب عليها " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته - فالهداية من الله بكتاب الله بسنة رسول الله لا بمناهج من هنا وهناك ن ثم يقول وهذا لا ننسأه - إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله - لأن من فضل الله أن يوفقك للخير ثم يكافئك عليه - ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه "

أيها المسلمون: أما من عودة راشدة إلى الله؟ أما من توبة صادقة إلى الله؟ ألا من أكف ضارعة في السحر إلى الله تسأله النصر تسأله الفرج وكشف الغمة والتفريج عن هذه الأمة في أقرب وقت، بعد أن ناءت ظهورنا وصدورنا بآلامها؟ هل من التجاء إلى الله صادق في ساعات الاستجابة بدموع سخية نبذها إلى ربنا سبحانه وتعالى بضارعة صادقة بتوبة نصوحة نلتجئ إلى الله عز وجل أن يفرج، هل من استجابة لنداء الله عز وجل (يا عبادي)، أو لقوله سبحانه وتعالى ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وعندما يقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ لا ينبغي أن نكون ممن قال فيهم ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ينبغي أن نصحح المسار ونصدق في الالتجاء وفي التوبة إلى الله عز وجل

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين

خطبة الجمعة 2014-09-05